

عنوان الدراسة: النقد الروائي الجزائري

- قراءة في التراكم النقدي -

محمد محمدي

جامعة سعيدة

الملخص :

يتناول هذا المقال مكون النقد الروائي الجزائري وواقعه الراهن. تتبنى هذه الدراسة على تساؤلات منهجية تتمثل في: ما واقع النقد الروائي الجزائري ؟ وما أهم معوقات تطوره وازدهاره ؟ وما هي التحديات التي تواجه النقاد الروائيين الجزائريين ؟ وتسعى هذه الدراسة إلى تقديم اقتراحات منهجية لرفع مكانة النقد الروائي والرواية الجزائرية إلى مصاف النقد الروائي والرواية العربية والعالمية.

الكلمات المفتاحية :

النقد الروائي، التأصيل، المسارات، النقد الأكاديمي، الرواية الجديدة، النخبة.

Résumé :

Cet article traite les composantes de la critique du roman algérien et de son état actuel, cette étude est basée sur les problématiques méthodologiques suivantes ; comment perçoit-on la critique du roman algérien ? Quels sont les obstacles que rencontre son développement ainsi que son épanouissement dans le milieu littéraire ? Et quels sont les défis que doivent surmonter les critiques algériens ?

Cette étude tend à présenter des propositions méthodologiques afin d'élever la place qu'occupe la critique du roman algérien au rang des autres critiques du roman arabe et mondial entre autre.

Mots clés :

la critique, le roman, l'enracinement, orientations, la critique académique, le nouveau roman, l'élite.

توطئة منهجية:

هل يمكن الحديث الآن عن نقد أدبي جزائري معاصر؟
هذا السؤال يقودنا مباشرة إلى طرح سؤال قبلي، يمكن صياغته، هو أيضا، على النحو التالي:

هل يمكن الحديث عن أدب جزائري حتى يتم التساؤل عن مدى إمكانية الحديث عن نقد أدبي معاصر؟

في اعتقادي أن السؤال الثاني لا يمكن التشكيك في تحققه وتوفر الإجابة عنه، وعلى عدة مستويات: التراكم - الكتابة - الأجيال - الأجناس الأدبية - الجوائز - الأطروحات - الندوات، وغيرها...

إذا كان السؤال الثاني محسوما، يبقى التساؤل عن وضعية وراهن هذا الخطاب البعدي، الذي هو النقد الأدبي الجزائري؟

يمكن الإقرار منذ البداية أن سؤال النقد الأدبي المعاصر يبقى سؤالاً ضيقاً وشائكاً، في الآن ذاته. كما أنه يثير من الحساسيات والأسئلة أكثر مما يثير من الأجوبة والخلاصات، انطلاقاً أولاً من صعوبة القيام - الآن - بوضع حدود زمنية وتاريخية حقيقية بخصوص مجموع التراكم النقدي الذي كتبه نقاد جزائريون متخصصون أو غير متخصصين، وأيضاً صعوبة الفصل "الصحيح" بين نوع التراكم الذي يمكن تصنيفه "فعلياً" في خانة النقد الأدبي، وذلك الذي ليس كذلك...

من المعلوم أن النقد الأدبي الجزائري المعاصر بدأ بدايات متعثرة كانت لها هفواتها، فيكاد يقع إجماع على أننا لا نلفي نقداً ممنهجاً بالجزائر قبل سنة 1961م، فما كان قبل هذه السنة لا يعدو أن يكون محاولات متناثرة في الصحف والمجلات، والتي « كان يدبجها بعض الكتاب، أمثال رمضان حمود، ومحمد السعيد الزاهري، ومحمد البشير الإبراهيمي، وابن باديس، وحمزة بوكوشة، وأحمد بن زياي، وعبد الوهاب بن منصور، وأحمد رضا حوحو، وغيرهم من الأدباء والمشايخ الذين لم نعرف واحداً منهم جعل النقد شغله الشاغل »¹، ولعل النهضة النقدية بالجزائر بدأت مع

كتاب أبي القاسم سعد الله، والموسوم بـ"محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث" *، ومنذ ذلك الحين باشرت الجزائر نهضتها النقدية ليصبح الجو الفكري العام مهتما بالنقد الأدبي كضرورة ملحة، باعتباره الموجّه والمرشد الذي يواكب الحركة الأدبية دافعا عجلة السيرورة والتطور.

كما كان لهذه العثرات تأثيرها الإيجابي على الفعل الأدبي، وعلى تطور الخطاب النقدي فيما بعد. لقد قيل الكثير عن الهفوات التي طبعت المسار النقدي الجزائري المعاصر في مختلف مراحل تشكله الأساسية، منها: (- سوء الفهم وضيق مجال التمثّل - عدم تبني منهج معين في كليته وفي مرجعياته الفلسفية والابتسولوجية - سوء استخدام وترجمة بعض المفاهيم الأساسية - ارتباط النقد الأدبي بالجامعة - إقبال النص بالمصطلحات والمفاهيم - ارتباط النقد الأدبي، في مجمله، بمدرسة واحدة (المدرسة) - غياب مراعاة خصوصية النص من ناحية وخصوصية النظرية أو المنهج المستورد والمتبني - هيمنة التقعيد والمعيارية - سلطة التطبيق الفج والاستيلاّب المنهجي - ادعاء العلمية العمياء في النقد - غياب الحوار الفعال بين الرواية والنقد - غياب المناخ الملائم والضروري لإنتاج المفاهيم - حضور الانتقائية - غياب القراءة المنتجة والمخصصة...)، وغيرها من الملاحظات الأخرى التي لا تتوخى التقليل من أهمية ما حققه الخطاب النقدي الأدبي عندنا، كما أنها لا تبتغي التأثير على الصيرورة والسيرورة النقدية والأدبية الجزائرية بالخصوص.

إن مجموع الملاحظات السابقة أيضا، وغيرها، لا تتوخى أساسا المراهنة على إظهار مكامن الضعف أو الخلل التي عانى وبعاني منها الخطاب النقدي الأدبي بالجزائر، في إحدى أهم مراحلها الأساسية، دون أن نلزم أنفسنا بذكر الأمثلة، بل إن الأمر لا يعدو أن يكون تأشيراً على أن الخطاب النقدي الجزائري كان يخاطب نفسه بنفسه، في غياب نقد النقد مثلاً، أو بتعبير آخر إن هذا الخطاب - وإن كان يؤسس لنفسه هويته - كان يعيش أيضا وهما خلفه داخل وضعية أدبية لازالت تعاني بدورها نوعاً من "الهشاشة" والبحث عن الذات، كما أنها لم تؤسس مشهدها الأدبي بالشكل

الكافي والمطلوب، بل إنها كانت في أمس الحاجة إلى التخفيف عنها من ثقل النظرية وكثرة المصطلحات والمفاهيم وتقويل النص من خلال كاتبه...

غير أن هذه الوضعية لم تلبث أن عدلت من مسارها العام دون أن تبرح مجموعة من الأسماء المشهد النقدي والأدبي الجزائري، إلى جانب ظهور أسماء أخرى استطاعت أن تقفز بالخطاب النقدي نحو توسيع دائرة اشتغاله وتشغيله...

وحتى لا نوسع من مجال حديثنا، تجنبنا للنتية، رأينا أن يقتصر حديثنا على النقد الروائي الجزائري دون غيره من أنواع النقد الأخرى، وإن كنا نرى أن أسئلة النقد الروائي كانت، إلى وقت قريب جداً، يصعب عزلها كلياً عن أسئلة أخرى مشابهة تخص باقي الأجناس الأدبية، نظراً لتشابه وضعية هذه الأجناس داخل مشهد الكتابة والتلقي، ونظراً أيضاً لكون مجموعة من نقاد الرواية يمارسون نفس النشاط النقدي بخصوص أجناس أدبية أخرى...

نظرة في النقد الروائي الجزائري:

إن المتأمل في نوعية وطبيعة التراكم النقدي الروائي بالجزائر لابد وأن تتعزى أمامه بعض الجوانب المشكلة لدائرة الوهم الذي يعيشه النقد الروائي عندنا: (وهم التمثيل الصحيح للمرجعيات النظرية والنقدية - وهم القرب من أوروبا - وهم المركزية الجديدة - وهم الطلائعية - وهم التراكم - وهم الاعتراف...)، وغيرها من الأوهام² التي لم يتم العمل على تفكيكها وقراءة مولداتها في ضوء ما يتأسس داخل أقطار عربية أخرى من خطابات نقدية كالحركة النقدية النشيطة التي يعرفها المغرب الشقيق.

سوف ننطلق، إذن، من مسلمة مفادها أن كل ما سطرناه من كتب موازية لهذه القراءة³، تمثل نماذج معينة من النقد والتحليل الروائي الممارس بالجزائر؛ بمعنى أن الملاحظات التي تطرحها هذه الكتابات لا تراهن على فعل "الإقصاء"⁴ أو "التصنيف" أو "نقد النقد"، الشيء الذي سوف يجنبنا حتماً السقوط في القول مجدداً بخطاب الأزمة^{**} الذي تحدث عنه نقادنا⁵ في فترات سابقة، ومن مواقع إيديولوجية خاصة، في حين

تبقى نظرتنا نحن إلى مجموع هذه الكتابات نظرة كلية، لا تراعي وضع الحدود بين مرحلة وأخرى، بل هي على العكس من ذلك نظرة تؤمن بالتطورية والدينامية كشرط أساسي لتبلور وعي نقدي ومشروع نظري ونقدي منتجين...

نلاحظ، إذن، أن كتب نقد الرواية بالجزائر لم تبلغ المستوى المرجو منها لا من حيث الكم ولا من حيث الكيف إذ وقعت في مزالق التنظير العقيم، ف « **الخطر كل الخطر في الولوع بما هو نظري أن يتحول إلى لعبة ذهنية تصبح متكا للتلذذ والمباهاة والاستعلاء، وقد تصبح في أحسن الأحوال مطية لتلقين دروس للمتلقى بشكل تعليمي مفضوح ممجوج** »⁶.

أما الدراسات النقدية والتحليلية، غير المنشورة، أو تلك المبنوثة في الدوريات الجزائرية والعربية، فعديدة ولا يمكن تغيب دورها المرجعي والوظيفي والتراكمي أيضا، في كل مرة يتم فيها الحديث عن راهن أو مستقبل النقد أو الرواية عندنا...

نلاحظ أيضا أن جل المؤلفين أو المساهمين في تلك الكتب لا زالوا يمارسون النقد الروائي، لكن بدرجات متفاوتة وباستمرارية متقطعة وبرؤى ولغات متباينة، ومن بينهم أيضا من يكتب النقد لأول مرة، كما أن من بينهم من يكتب الرواية ويمارس النقد الأدبي، وذلك سؤال قديم-جديد، لكنه مؤثر...

إن هذه القراءة في التراكم النقدي الروائي بالجزائر لا تدّعي لنفسها الإلمام بالمشهد التراكمي النقدي الروائي، وذلك بالنظر إلى كونها تغيب مجموعة أخرى من الأسماء الناقدة، والتي تبقى لها مكانتها ودورها التأثيري في التراكم النقدي، كما أن غيابها، هنا، يرجع إلى كونها لم تصدر أي كتاب نقدي إلى حد الآن، كما أنها لم تقم بجمع ما سبق، أو لم يسبق نشره من دراسات ومقالات نقدية في كتب خاصة. يقول مخلوف عامر في هذا المقام: « **أما مشكلة النقد عندنا فهي ذات طبيعة أخرى، إذ باستثناء جهود محمد مصايف وعبد الله ركيبي التي بقيت في حدود المدرسة التقليدية، وبصرف النظر عن الدراسات الأكاديمية التي لم تر النور بعد، فإن وجوها قليلة جداً يمكن أن يعول عليها مستقبلاً، من أمثال الأساتذة: عبد الحميد بورايو ورشيد بن**

مالك، وعبد القادر هني، ونور الدين السد...»⁷.

ملاحظات ووقفات عند التراكم النقدي الروائي الجزائري:

أول ملاحظة يمكن القول بها بخصوص ذلك التراكم النقدي هي تلك التي تخص التمييز بين كتابات نقدية وتحليلية اقتصر فقط على مقارنة النص الروائي - والسير ذاتي - الجزائري⁸ ، وأخرى مزجت بين مقارنة النص الروائي الجزائري والعربي⁹ . إلا أن عدد الكتابات الأولى، حول الرواية الجزائرية، تفوق باقي الكتابات النقدية الأخرى، وهو ما يؤثر ضمناً على الحضور اللافت والهام للرواية الجزائرية داخل الوعي النقدي للنقاد الجزائريين.

ثاني ملاحظة هي تلك التي تخص التمييز بين تراكم نقدي هو وليد الجامعة، وآخر نابع من الفضاء النقدي الخارجي، وإن كانت جل الممارسات النقدية يقف من ورائها نقاد ينتمون إلى الفضاء الجامعي أو تخرجوا منه. كما أن جل الدراسات والأبحاث النقدية حول الرواية لا زالت رهينة رفوف الكليات والمعاهد العليا.

ثالث ملاحظة تخص إيقاع التوازي بين التجربة الإبداعية الروائية الجزائرية والعربية والتجربة النقدية الجزائرية، بحيث يمكن، هنا، تسجيل غياب التكافؤ بين التجريبتين، خاصة وأن عدد النصوص الروائية الجزائرية التي استحضرتها تلك الكتابات النقدية والتحليلية تبقى قليلة جداً، بالمقارنة مع ما يكشف عنه التراكم الروائي من نصوص روائية باللغتين العربية والفرنسية¹⁰ . وهو ما يعني أن بعض النصوص الروائية فقط هي التي فرضت نفسها، دون غيرها، على مستوى المتابعة النقدية والتحليلية، أو على مستوى إعادة القراءة***.

فلم تستطع الدراسات النقدية الجامعية، التي تكتفي عادة بدراسة نص روائي واحد، أن تسد فراغ الرؤية التي يعانيتها الأدب الجزائري. وتكاد تختفي الدراسات البانورامية والبيبلوغرافية، إذ لم يتم حتى الآن إحصاء عدد النصوص التي تصدر سنوياً. وبالتالي تبدو القطيعة كاملة ومكتملة بين واقع الكتابة التي تشعر بعزلتها وعدم إنصافها ودرس النقد الجامعي الذي ينغلق شيئاً فشيئاً ضمن حدوده الجامعية، متذرعاً

بعمليته وأكاديميته الجافة. أما النقد الذي يُمارس عادة ضمن الملتقيات الأدبية، فهو يمارس في الغالب على الأسماء المكرسة. وثمة من يشتكي من هيمنة اسم واحد أحياناً على ملتقيات عدة تكاد تكون مخصصة لهذا الكاتب بذاته، ومن هنا ضاعت الثقة وانسدّ باب الحوار، ولعلّ هذا ما أثار في الآونة الأخيرة موجة من النقد للباحثين والنقاد أنفسهم من الروائيين الشباب، وبخاصة الذين عبروا عن سخطهم في المواقع الاجتماعية لانعدام قنوات أخرى توصل صوتهم واحتجاجهم ذاك.

رابع ملاحظة لها علاقة بالملاحظة السابقة، وذلك على مستوى اهتمام النقد الروائي الجزائري بأسماء روائية جزائرية، وحتى عربية، دون غيرها من الأسماء الأخرى التي يطفح بها المشهد الروائي الجزائري والعربي، وتلك الأسماء يكاد حضورها في جل الكتابات النقدية، في الوقت الذي شهد فيه المشهد الروائي الجزائري ظهور أسماء جديدة¹¹ تكتب الرواية إلى جانب استمرارية الأسماء الأولى: «ويكفي ذكر أسماء روائية مثل: محمد ديب، كاتب ياسين، الطاهر وطار، مولود معمري، الحبيب السايح، رشيد بوجدر، إبراهيم سعدي، فضيلة الفاروق، نينا براوي، واسيني الأعرج، عز الدين جلاوي، محمد زيتلي، جيلالي خلاص، عمارة لخص، ياسمينه صالح، حسية موساوي، سعيد مقدم، محمد مفلح، سليمة غزالي، مرزاق بقطاش، عبد الله خمار، شهرزاد زاغر، رشيدة خزام، بشير مفتي، جميلة زنير، ربيعة مراح، أحلام مستغانمي، كمال بركاني، وغيرها من الأسماء ليتأكد القارئ أن هذا المتن الجزائري متن يستحق الدراسة العميقة، والإنصات الحسن، والتتبع الرصين»¹².

لكن الحركة النقدية أو التجربة النقدية - حتى نكون أكثر دقة -، وبالرغم من التطور الحاصل، نجدها قد بقيت تعاني من عيوب في التأسيس النقدي، أو المنهج النقدي، الذي يقوم على أساس الوعي الذاتي بمختلف القيم الحضارية، والفكرية، موازنة ومراعاة لمختلف الظروف الاجتماعية، الثقافية، بحيث لم يعد أداة سهلة في يد كل متتبعي الحركة الإبداعية الحاصلة على مستوى الساحة.

خامس ملاحظة تهم غياب حدوث أي حوار متكافئ بين الأجيال الناقدة فيما بينها، وبين الأجيال الناقدة الأولى والأجيال الكاتبة الجديدة، وهو حوار وتعايش كان من الممكن، في حالة حدوثهما، أن يساهما معا في خلق حركة نقدية وروائية مهمة، بدل القول فقط بتأزيمها وتوريطها... فمن الأسباب التي أدت إلى تدهور مجال النقد « الانغلاق الخانق الذي لم يقتصر على عدم التواصل بين البلدان العربية فقط، بل تعداها إلى ضعف التواصل بين الكتّاب والنقاد داخل الوطن الواحد »¹³.

سادس ملاحظة تركز على التباين المنهجي الذي يطبع مجموع تلك الكتابات النقدية، بحيث نسجل، هنا، الحضور المكثف لمجموعة من المناهج والمرجعيات النظرية الأوربية التي استفاد منها النقد الروائي الجزائري، بدرجات وتمثلات مختلفة ومتباينة: (المنهج الجدلي، المنهج البنوي التكويني، المنهج الشكلي، المنهج الموضوعاتي، المنهج السيميائي، المنهج البويطقي، المنهج السوسيوي-نقدي، المنهج التكاملي...) وهذا ما دفع "حميد لحميداني" إلى اعتبار « التركيب النقدي قدر الناقد العربي على الأقل في الوقت الراهن من خلاله يستطيع إبراز عبقريته ومساهمته في النقد المعاصر »¹⁴

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا أنه ما تزال صورة الاتجاهات الجديدة المتصلة بالبنوية وما بعدها متداخلة في وعي الناقد الأدبي العربي الحديث وفي ممارسته النقدية، « فإننا نقع في واقع الحال على محاولات نقدية غير ناجزة تتمثل هذا الاتجاه أو ذاك، أو أن تطوره ضمن سيورة النقد العربي الحديث. ثمة استثناءات قليلة لم يكمل أصحابها مشروعاتهم النقدية نحو اتجاهات شعرية السرد أو التفكيكية أو العلاماتية أو البنوية التكوينية.. إلخ »¹⁵.

وهذا ما جعل بعض نقادنا يأخذون على عاتقهم هم التأصيل لنظرية نقدية روائية تقوم على التراث النقدي، كرد فعل على ظاهرة التبعية للنقد الغربي مما أفرز صراعا فكريا بين الاتجاهين (الاتجاه التراثي والاتجاه المتأثر بالغرب)، يعلق أحد النقاد العرب على ذلك بقوله: «.... ومن هنا طفا إلى السطح (يقصد الصراع) وفي الجانب المقابل، آل هذا

الصراع المستمر إلى بروز ظاهرة التبعية إلى جانب ظاهرة الهوية، وإذا كانت التبعية في أشد مظاهرها هي التكون النقدي الغربي، الاستعماري أو الإمبريالي، فإن الهوية لاذت بالتراث والتراث النقدي مؤملاً لاحتضان نظرية عربية حديثة في الأدب والنقد»¹⁶.

سابع ملاحظة تخص تعايش زمرة من الأجيال الناقدة داخل المشهد النقدي الجزائري، في غياب أي حوار فعال ونقدي فيما بينها مع بعض الاستثناءات الطفيفة والمجهودات الفردية التي يقوم بها بعض المنتمين إلى هذا الجيل أو ذاك. إلا أنها أجيال تمكن جل المنتمين إليها من تطوير خطابهم وأدواتهم النقدية، سواء على مستوى الاستبدال المنهجي أو على مستوى الرؤية والانفتاح المنهجي والنظري. كما أن التراكم النقدي الذي حققه بعض "نقادنا الجدد" يؤثر على حضور وأهمية نقد الرواية لديهم، الشيء الذي مكنهم من اكتساح المشهد النقدي الروائي الجديد، وإن كان اكتساحاً تبقى له هفواته وثغراته هو أيضاً...

ثامن ملاحظة يمكن ربطها بالقفزة النوعية التي حققتها بعض النصوص الروائية الجزائرية، من رواية التي تم اعتمادها في مقررات المؤسسات الأكاديمية، الأمر الذي واكبته حركة نشطة فيما يخص تأليف وإصدار كتابات "نقدية" و"تحليلية" موازية لتلك النصوص.

وتبقى رواية "اللاز" سابقا وكذا روايات "لعبة النسيان" و "قوضى الحواس" و"عابر سرير"... وغيرها لاحقاً، من بين أهم الروايات التي حظيت بالترحيب النقدي والتحليلي لها.

وفي رأيي أن هذه الكتابات، متى خرجت عن الطابع الأكاديمي، فإنها تبقى ظاهرة صحية وإيجابية، ليس فقط على مستوى التراكم النقدي، بل أيضاً على مستوى انفتاحها على فئات كثيرة من القراء والمهتمين (رجال التعليم وغيرهم).

إلا أن من سلبيات هذه الظاهرة تشير إلى ارتباط بعض المنشغلين بها بالظرفية الزمنية والمناسبات، دون أن يتعدوها نحو قراءة وتحليل نصوص روائية أخرى لم

تعتمدها المؤسسات الأكاديمية، الأمر الذي يجعل تصورهم ورؤيتهم النقدية يطبعها الانغلاق والهشاشة والمحدودية...

تاسع ملاحظة ترتبط بالمسار العام للنقد الروائي الجزائري الذي لم يؤسس لنفسه، على مستوى تحولاته المنهجية والنظرية، ازدهارا لافتا للانتباه والمساءلة. فجميع أنواع النقد التي عرفها المشهد النقدي الروائي الجزائري لم تعمر طويلا، حيث كان كل نوع يفسح المجال للنوع الآخر، وإن كان لم يستنفد طاقته المرجعية والنقدية والتطبيقية كاملة. إلا أن جل تلك الأنواع النقدية والمناهج لم تغادر الساحة النقدية نهائيا، بل إن منها ما يطفو على السطح مرات أخرى في إطار ما يسمى بالتكامل المنهجي أو المعرفي...

فبعد الملك مرتاض ككل النقاد العرب الذين شغلتهم الدراسات الحديثة، مكنته ثقافته من الإطلاع على المناهج النقدية الغربية والاستفادة منها. وهو ما قد نستشفه من قول مرتاض: « لما تسجلت في السوربون تحت إشراف الأستاذ أندري ميكائيل كان لا مناص من تغيير جلدي، دون تغيير جوهري وهويتي. فكانت سنة ست وسبعين... الفترة الحاسمة في حياتي العلمية: بين التراث وجماله، وعمقه، وأصالته... وبين الحداثة بما فيها من ضبابية، وجمال الشكل، وصرامة المنهج، ثم بما فيها خصوصاً من القلق المعرفي»¹⁷.

فقد حاول في العديد من دراساته استلهاج المناهج الغربية وتطبيقها في تحليل نصوص أدبية تراوحت بين الشعر والسرد، والذي يهمنها هو الدراسة التي أجراها على رواية "تجيب محفوظ" "زقاق المدق" عنونها بـ"معالجة تفكيكية سمائية مركبة" معلناً عن النهج الذي يستتير به، ولكن أثناء شرحه لرؤيته النقدية في مقدمة الكتاب يشير إلى أن تحليله يجري في التيار البنيوي السمائي تجنباً للانزلاق إلى التيار الاجتماعي النفسي، ضاربا عرض الحائط المناهج التقليدية التي يراها قد أفلست ولم تعد صالحة في هذه المرحلة بعد أن أدت ما عليها.¹⁸

ورغم أن الرواية التي يتناولها بالدراسة تتدرج تحت راية الواقعية، التي تتطلب منها بنويًا توليديًا، إلا أنه يراه غير دقيق، يتراوح بين البنيوية والاجتماعية ولا يثبت على اتجاه بعينه، لذلك يعدل عن البنيوية التوليدية، ويؤثر بنيوية طعمها كما يقول بتيارات حداثية أخرى، في مقدمتها السميولوجيا التي وظفها في تحليل الشخصيات وبعض الأدوات اللسانية، بينما كان المنظور البنيوي وسيلة للكشف عن البنى العميقة، والفنية المتحكمة في الخطاب السردي.¹⁹

ونجده في موضع آخر من نفس الكتاب يشير إلى اعتماد المنهج الإحصائي مسترسلًا في الدفاع عنه تجاه بعض الإشكالات التي تحيطه، معتبرا إياه أساسيا في معرفة: « بشيء من الدقة مدى تواتر هذه الشخصيات مما يجعلنا بناء على نتائج الإحصاء في حل من تحديد الشخصية المحورية أو الشخصيات المحورية جملة واحدة». ²⁰

والملاحظ أن "عبد المالك مرتاض" يطيل في شرح موقفه ووجهة نظره من المنهج الإحصائي، بينما يكتفي بالإشارة العابرة فقط حين يتحدث عن النهج الذي تبناه في تحليل الرواية، وهو المنهج البنيوي السميائي، وينسى المنهج الذي عنون به الكتاب "التفكيكية السميائية" فلا يشير إلى التفكيكية قط على الأقل في مقدمته التي وضح فيها وجهة نظره.

وهكذا لا يلتزم "عبد المالك مرتاض" بالمنهج البنيوي والسميائي، بل يركب بين عدة مناهج وهو بهذا العمل يكاد يكون الأول من بين النقاد العرب الذين يميلون دوماً إلى التركيب، إذ تحتوي كل دراساته تحليلات بمختلف المناهج كدرسته هذه اعتقاداً منه أن أحادية المنهج عاجزة عن بلوغ الغاية المطلوبة من النقد.

عاشر ملاحظة هي تلك التي تخص طبيعة الأسماء الغربية المنظرة التي تهيم على المرجعية النظرية والنقدية الروائية بالجزائر: (لوكاش، كولدمان، بارت، جينيت، تودوروف، زيماء، لوجون، إيكو، إيزر، باختين، غريماس، كرزنسكي...).

« فإما أن تكون بنيوياً أو لن تكون ناقداً، وإما أن تحذو حذو جينيت، أو غريماس، أو تودورف، أو دريدا، أو هارتمان، أو بول دي مان، أو أنك لا تكتب نقداً، ناهيك عن تحويل النقد إلى جداول إحصائية وأشكال هندسية وكتابة لغزية أشبه بالمتاهة أو التجريب الذي لا طائل منه »²¹.

ويمكن أيضاً تلمس الحضور المهيمن لهذه الأسماء على مستوى الترجمات التي قام بها، أو ساهم فيها، النقاد الجزائريون: (كتاب ودراسات ومقالات مترجمة لكل الأسماء السابقة). وهو ما يبرز -إلى حد ما- انفتاح الحركة النقدية الروائية عندنا على نوع من التوسع الجغرافي النقدي والنظري، الأوروبي خاصة. ولكنه يبقى توسعاً محصوراً، ما دام أن نشاط الحركات النقدية العالمية لها أصداء جديدة في مناطق أخرى من العالم...

آخر ملاحظة تتعلق بخصوصية المتن الروائي الجزائري وتميّزه في الساحة الإبداعية العربية، ولعل هذا ما أسال لعاب الكثيرين من النقاد العرب ودفعهم لدراساتها ولم ينفوا صعوبة ذلك يقول الناقد والباحث المغربي جمال بوطيب: « يعد الاشتغال على نصوص روائية جزائرية حديثة مسلماً مهيّب المفازات، وذلك بحكم تعدد الأسماء الروائية، واختلاف أجيالها وتجلياتها، وبسبب تنوع هذا المتن الروائي بنيات وأساليب كتابة وطفرات فنية وتنظيرات نصية، ولسنا في حاجة هاهنا إلى التذكير بأن هذه الرواية قد أوجدت لنفسها تميزاً وفرادة على مستوى المنجز الروائي في العالم العربي، بفضل هذا التنوع وذاك التعدد»²².

خلاصة:

ختامًا لهذه المداخلة سنسعى إلى تقديم بعض الاقتراحات التي - نحسبها تصب في باب السمو بالنقد الروائي الجزائري.

فبعد كل هذه الملاحظات، وغيرها مما لم يتسع المقام لسرده، يصعب القيام بحصر مختلف الأسئلة التي رصدتها وأنتجتها تلك الكتابات النقدية والتحليلية، وإن كانت في عمومها تتراوح بين سؤال "الواقع" وسؤال "التأريخ" و سؤال "الكتابة" وسؤال "الحدث والتجريب"...، مع ما يمكن أن يندرج بينها من أسئلة ضمنية موازية، إلا أنها تبقى أسئلة اختزالية ولم ترق إلى مستوى الكشف العميق عن الحمولات الدلالية والشكلية للنصوص الروائية، بالإضافة إلى كونها خطابات نقدية لم تساير، في مجملها، مستوى تحول الكتابة الروائية والعربية، نظرا لكون مجموعة من الأسئلة الأساسية للرواية العربية بقيت معلقة وغير مكشوف عنها بالشكل الكافي. قد يعود السبب إلى استمرار غياب المناخ الثقافي الملائم، والذي من شأنه أن يؤدي إلى بلورة نقد روائي جزائري باستطاعته أن يكشف عن طبيعة الجدليات القائمة أو الممكنة بين الرواية والمجتمع أو بين الرواية والمتلقي بشكل عام، خارج أية تأثيرات، سابقة أو لاحقة، يمكن افتراضها في هذا السياق، باعتبارها الموجهة لفعلي النقد والتحليل...

وتبقى دعوة بعض النقاد إلى إعادة قراءة بعض النصوص الروائية، الجزائرية والعربية، في ضوء معطيات وتصورات نظرية ونقدية جديدة دعوة ملحة. كما أن من شأن تلك القراءات الجديدة أن تكشف عن أسئلة حقيقية وعن قضايا أساسية تخص الذات والهوية والكينونة والسارد واللغات والمتخيل...، وغيرها من الأسئلة الأخرى التي تتكاثر بحسب تناسل النصوص والقراءات، وهو ما سيضيفي على النقد الروائي -لا محالة- المشروعية والإيجابية والخصوصية.

كما أن من شأن ذلك أيضا أن يمكننا من "إعادة النظر في علاقتنا بالرواية وغايتها منها، وطريقة قراءتها على ضوء أسئلتنا وعلى ضوء العلائق التي نطمح إلى إقامتها بين الروائيين والمتلقين"²³. ويكفي أن نستدل بكتابات بعض نقادنا من ذوي

القامات العالية (عبد المالك مرتاض، صالح خرفي، عامر مخلوف، بن عودة بختي وغيرهم....) لكي نستنتج بأن النقد الروائي الجزائري في تحوّل وتطوّر مستمرين ومنتجين للنص ولرموزه ولعلاماته ولتعميقاته ولمادته التخيلية، كما أنه نقد يتوخى من خلال ذلك كله، استيعاب الدلالات العميقة والمتشابكة والحقيقية للنص، وأيضاً إنتاج وتوليد معرفة حوله، بما هو « أداة معرفة ونقد » على حد تعبير محمد برادة²⁴.

وفي الأخير، إن ما نلاحظه من تفاوت بين النقد في المشرق العربي وفي المغرب سواء على مستوى الوعي الأدبي والفكري أو على مستوى الممارسة النقدية التي لم تكن مبنية في معظمها على الفكر النقدي القادر على التمثّل والاستيعاب، ومصدره هذا هو انعدام نظريات نقدية فلسفية، تستند إلى المدارس النقدية الحديثة، فرغم الدراسات التي كتبت بقصد توضيح أصول أزمة النقد الأدبي في الجزائر، فإن الحاجة ما زالت ماسة لإعادة النظر في المسلمات والأسس التي تركز عليها مفاهيمنا الثقافية، ومنطلقاتنا الفكرية، المسؤولة عن هذا المأزق الذي نستشعره في كل مجالات الإبداع والممارسات النقدية. وعلى نقادنا -كاقترح منهجي- الاحتفاء بالأعمال الإبداعية الجزائرية، والتركيز على الأعمال التطبيقية خدمة للبحث الأكاديمي في النقد الروائي الجزائري. في شقيه الإجرائي والنظري.

ولا ضير في الأخير من الإشارة إلى أننا في هذه المداخلة، لم نمنح الموضوع حقّه من الرصد والمتابعة، فعسى أن نكون وفّقنا في جزء منه على الأقل والله الموفّق للصواب.

الإحالات:

¹ يوسف و غليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر 2002، ص9.

* هذا الكتاب في أصله قدم كرسالة لنيل شهادة الماجستير، أشرف عليها الدكتور: عمر الدسوقي.

² استقينا هذا المصطلح من دراسات نقدية للرواية العربية، ينظر: عبد الله أبو هيف: النقد الأدبي العربي الجديد - في القصة والرواية والسرد- منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000م، ص 490.

³ نشير إلى الكتب التالية: عبد الله ركيبي «تطور النثر الجزائري الحديث» (1978)، مصايف، محمد: «الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام». الدار العربية للكتاب. تونس. ليبيا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1983. الأعرج، واسيني: «اتجاهات الرواية العربية في الجزائر». المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1986. مرتاض، عبد الجليل: «البنية الزمنية في القص الروائي». ديوان المطبوعات الجامعية. جامعة وهران. وهران 1993. عثمان، عبد الفتاح: «الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع. دراسة تحليلية فنية». الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة 1993. مرتاض، عبد الملك: «في نظرية الرواية. بحث في تقنيات السرد». سلسلة عالم المعرفة. الكويت 1998. وغيرها....

⁴ يقول في هذا الصدد الناقد: راجي عبد القادر: «عندما يعود أي دارس يتحرى الموضوعية إلى المدونة النقدية الجزائرية الموصوفة بالمعاصرة، ويقرأ ما تكتبه بعض أسمائها المولعة بالأبوية الموروثة من عهد السبعينيات، يدرك لماذا يسلط العديد من الأدباء والنقاد الشباب غضبهم الشديد على النقد عموما وعلى النقاد خصوصا، متهمين إياهم بالتقريط في نصوصهم، وأحيانا بعدم قراءتها تماما، أو بالمحاباة في اختيار ما يرونه جديرا بالخضوع لمصفاة آلتهم النقدية بنظرة لا تخلو من تمركز واهم، أو من شوفينية ضيقة، أو من تسلط مسيق.» ينظر: النقد القديم والجيل الجديد مقال ضمن الموقع <http://massareb.com/?p=2996>

** ينظر: مخلوف عامر: الرواية والتحول في الجزائر (دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص 08.

⁵ ينظر: مخلوف عامر، المرجع نفسه، ص 09، ينظر أيضا: بوشوشة بن جمعة، سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار - تونس، ط1، 2005.

⁶ مخلوف عامر: الرواية والتحول في الجزائر (دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، ص 10.

⁷ المرجع نفسه: ص 16.

⁸ نذكر من تلك الكتابات: الطاهر رواينية: "الكتابة وإشكاليات المعنى - قراءة في بنية التفكير في رواية تجربة في العشق للطاهر وطار".

⁹ على سبيل المثال: كتاب عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق" الصادر عام 1995، عن ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر).

¹⁰ على غرار كتابات آسيا جبار، ياسمين خضرة

*** يمكن التمثيل لذلك بروايات كل من : الطاهر وطار، رشيد بوجدر، واسيني الأعرج، أحلام مستغانمي، إسماعيل غموق، محمد زيتلي، أحلام مستغانمي، جيلالي خلاص، محمد ساري وغيرهم...

¹¹ قال عنهم أمين الزاوي: "الجزائر تعرف حركة روائية متميزة، وأقلاما جديدة تكتب بجرأة، وكسرت الطابوهات " ينظر: الموقع الإلكتروني <http://www.eldjazairedjadida.dz/>

¹² ينظر: جمال بوطيب: «الاستعارة الجسدية: الذات والآخر في الرواية الجزائرية، مؤسسة التتويح للطباعة والنشر والتوزيع، المغرب، ط 1، 2008. مقدمة الكتاب.

¹³ مخلوف عامر: الرواية والتحول في الجزائر، مرجع سابق، ص 08.

¹⁴ حميد لحميداني: النقد الروائي والأيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1990، ص 28.

¹⁵ عبد الله أبو هيف: النقد الأدبي العربي الجديد - في القصة والرواية والسرد - منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000م، ص 276، 277.

¹⁶ المرجع نفسه: ص 518.

¹⁷ جهاد فاضل: أسئلة النقد، حوارات مع النقاد لمرتاض، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، د.ت، ص 217.

-
-
- ¹⁸ عبد المالك مرتاض: تحليل الخطاب السردي معالجة تفكيكية سمائية مركبة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 17.
- ¹⁹ المرجع نفسه: ص 18.
- ²⁰ نفسه، ص 28.
- ²¹ عبد الله أبو هيف: النقد الأدبي العربي الجديد - في القصة والرواية والسرد-، مرجع سابق، ص 518.
- ²² ينظر: مقدمة كتاب بعنوان «الاستعارة الجسدية: الذات والآخر في الرواية الجزائرية، جمال بوطيب مؤسسة التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع، المغرب، ط 1، 2008.
- ²³ محمد برادة، نظرية الرواية، في مجلة: مقدمات، المجلة المغاربية للكتاب، عدد 10، صيف 1997، ص 63.
- ²⁴ محمد برادة، أسئلة الرواية، أسئلة النقد، منشورات الرابطة، 1996، ص 35.

المصادر والمراجع المعتمدة:

- ❖ بوشوشة بن جمعة، سردية التجريب وحدثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار - تونس، ط 1، 2005.
 - ❖ جمال بوطيب: «الاستعارة الجسدية: الذات والآخر في الرواية الجزائرية، مؤسسة التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع، المغرب، ط 1، 2008.
 - ❖ جهاد فاضل: أسئلة النقد، حوارات مع النقاد" لمرتاض، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، د.ت.
 - ❖ حميد لحميداني: النقد الروائي والأيدولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1990.
 - ❖ عبد الله أبو هيف: النقد الأدبي العربي الجديد - في القصة والرواية والسرد- منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000م.
 - ❖ عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردي معالجة تفكيكية سمائية مركبة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
-
-

-
-
- ❖ تحليل الخطاب السردي (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية " زقاق المدق" الصادر عام1995، عن ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر.
 - ❖ محمد يرادة، أسئلة الرواية، أسئلة النقد، منشورات الرابطة، 1996.
 - ❖ نظرية الرواية، في مجلة: مقدمات، المجلة المغاربية للكتاب، عدد 10، صيف 1997.
 - ❖ مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر(دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000.
 - ❖ يوسف وجليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر 2002.

الموقع الإلكتروني <http://www.eldjzaireldjadida.dz/>
